استاذية الرسائل

يبقى «النورسي» من بين الكتّاب الاسلاميين اكثرهم اهتماماً بأساسيات الايمان وقضاياه الغيبية لما بعد الموت، فقد هيمنت هذه القضايا على تفكيره واستأثرت بوجدانه منذ كان طفلاً يرقب عن كثب ظاهرة الموت، وعجز بني البشر عن دفعه عنهم، فبدأ اهتمامه في سن مبكرة جداً بمعنى الموت والحياة، وسر الفناء والبقاء، وظلَّ هذا الهاجس يلازمه طوال حياته مما جعله يتميز بابداعاته في هذا المضمار الذي يكاد ينفرد به دون سواه.

وكانت مسألة الوجود ـ وجوده الذي يحرص على بقائه وخلوده ـ والعدم ـ الذي يخافه ويشفق منه ـ هي نقطة الانطلاق في البحث عن كل ما يسند هذا الوجود ويحفظه ويمنحه القوة على مغالبة العدم والانتصار عليه. فلم يعثر في غير الدين ـ من مذاهب وافكار وفلسفات ـ على ما يمنح وجوده ذلك الخلود الذي يشتاقه ويتوق اليه، هو وكل انسان على هذه الأرض.

وكان من الطبيعي ـ وقد وجد ضالته في الايمان والاسلام ـ ان يحسَّ بروح الخلود سارياً في كيانه كله، ومشيعاً في وجوده خارقة الفهم لحقيقة الزمن الأخروي الذي يرتبط أحد طرفيه بالانسان، وطرفه الآخر بالأبد، فلا عجب اذا ما غدت العلاقة بين الانسان والأبد ـ منذ هذا الاحساس ـ ميدان قلم «النورسي» في رسائله البالغة ثلاثين ومئة رسالة.

فانقاذ الانسان من العدم هو المحور الذي تدور عليه الرسائل، فقد استطاع «النورسي» البرهنة من خلالها على ان الوجود الحي يستمد حياته من اسم الله «الحي»، بينما «العدم» أمر اعتباري لا وجود له، وان الانسان بلطائف تكوينه مخلوق للخلود، وأما «الموت» الذي يصيبه فهو لباس موقت لا يلبث أن يتجرد منه ويلبس بدلاً عنه ثوب البقاء والخلود، وان «الغيب» عالم الحق والطهر والقداسة عالمٍ مهيب وجليل وهو قائم فعلاً، وانه يلهم - بحكم ارتباطه بالكون - بعضَ من يريد من البشر بعض ما يريد من حقائق الاشياء، وان تلقي المعارف الإلهية المتنزلة على الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أمر ممكن بلٍ لازم من لوازم الألوهية والربوبية التي ليس من شأنها ترك مربوبيها هملاً دون توجيه، أو دون التعريف بنفسها أو التعريف بآياتها المنتشرة في كل مكان من هذا العالم.

وظلَّ «النورسي» يتوغل بقلمه في هذه القضايا الإيمانية، ويكتب فيها بأستاذية نادرة، حتى غدت «رسائل النور» بمجموعها قوة عظيمة من قوى الاقناع بمصداقية الغيوب التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولكونها أحاطت بجميع مراتب الغيبيات ابتداءً بالملائكة وانتهاءً بالقيامة والنشر والحشر واليوم الآخر، لذا فقد تكاملت شخصيتها المعنوية، وتوضحت ملامحها، وتعمقت سماتها المميزة، حتى ان «النورسي» كاتبها نفسه يتعامل معها وكأنها ذات منفصلة عن ذاته، وشخصية مستقلة عن شخصيته، وكيان مباين لكيانه، وفكر يرفد فكره، وعقل يغني عقله، وهذا أمر غريب لم يسبق لمفكر من المفكرين أنْ تعامل مع نتاج فكره كما تعامل «النورسي» مع فكره. فهو استاذ عظيم حين يكتب أفكاره، أو يمليها على الآخرين، ولكن ما إنْ ينتهي منها حتى يعود تلميذاً لها. يتتلمذ عليها، ويجلس منها مجلس التلميذ من استاذه، فيتدارسها، ويستشهد بها، ويميل

عليها، ويطلب من طلابه ان يتعلقوا بها، ويفيدوا منها، ويأبى عليهم التعلق بشخصه، أو الالتفات اليه، ويعلمهم دائماً ان «رسائل النور» هي استاذهم الحقيقي، وانه على استعداد ـ كما يقول ـ ليموت في سبيلها، ويتلقى من أجلها صنوف الأذى والعذاب، ولكنه لا يرضى أن يمسها أحدٌ بسوء، أو يحجبها عن طالب، أو يمنعها قارئاً، لأنها ملاذ الايمان والمؤمنين، وحصنهم الحصين، وسلاحهم الذي يفلُّ سلاح أعداء الايمان والدين.

وطبيعي جداً ان يرى «النورسي» «رسائل النور» استاذاً عظيماً لا مناص من الأخذ عنه والتتلمذ عليه، لأنه لم يورد في هذه الرسائل تصورات فكرية، أو مُرَجّحات عقلية، قد يصدق بعضها ويخطئ بعضها الآخر، وإنما كتبَ فيها ما رأى وشاهد وجرّب، وبلغ عنده حدّ اليقين الذي لا يمكن ان يقبل الخطأ، فما تتضمنه الرسائل يقينيات لم تبلغ حدّ اليقين عنده قبل اختبار قدرتها على بناء نفسه، واقامة كيانها المنقض، وقبل اختبار فاعليتها على مسح جراحات روحه، ورتق انشقاقات وجدانه، وهي بعد ذلك يقينيات مستمدة من اليقين الأعظم وهو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فما من أحد كائناً مَن كان ـ ولو كان «النورسي» نفسه كاتب هذه الرسائل ـ الاّ ويشعر ـ بين الفينة والفينة ـ بالحاجة الى الرجوع اليها والنظر فيها ومدارستها والاستشهاد بها على ما يعنُّ له من مسائل الدين والايمان.

إن قدرة «النورسي» على الفصل بين ذاته وموضوعه في «رسائل النور» قلّما يقوى عليه مفكر وجداني من المفكرين الوجدانيين.

لان الفكر الوجداني متعلق بالذات وبأحاسيس هذه الذات ومشاعرها، بحيث يصعب انفصاله عنها أو تحرره منها، ولكنَّ «النورسي» لكونه مفكراً يمزج بين شفافية الوجدان وصرامة العقل والمنطق فيما يكتب، فقد

استطاع ان يسكب ذاته في فكره ثم يدفع بهذا الفكر ليستقل بنفسه خارج ذاته، وكأنه غريب عنه يحاوره ويستشيره حين يحتاج اليه، وهذا هو سرّ دعوة طلابه ليتتلمذوا على «رسائل النور» لا على شخصه، ويلتفوا حولها لا حوله.

صحيح ان بعضاً من المفكرين قد عاشوا أفكارهم، ولازموا معتقداتهم، واعتمدوها في أخلاقياتهم وسلوكهم، لكنَّ أحداً منهم لم يقف من فكره موقف التلميذ من أستاذه لأن أحداً منهم لم يبلغ فكره عنده درجة اليقين الذي لا يقين قبله أو بعده.

غير ان أفكار «النورسي» يقينيات مجربة أثبتت قدرتها على التفاعل مع النفس وعلى اختراق حصونها، وتنشيط خلاياها الإيمانية، واستئصال اية تورمات كفرية متفسقة فيها، وبذلك أصبحت جديرة بالأستاذية التي منحها إياها صاحبها «النورسي».

ومعارف «النورسي» الايمانية في رسائله معارف قرآنية بالاساس، لها انعكاساتها وتجلياتها في جسم الكون الذي لا يمكن تجريده من عنصر العقل المنطوي على هذه المعارف، والتي لا مانع من انتقالها ـ بالبحث والتنقيب ـ الى عقل الانسان ووجدانه كما تنتقل المعارف بين العقول، حيث يسند المعقول الكوني المنقول القرآني ويؤيده ويقويه، ثم يشكلان من توحدهما المعرفة الايمانية العتيدة الموثقة بالدليل العقلي الكوني، كما هي عند «النورسي» في كل رسائله...

فرسائله إنما ترسي لدى دارسيها قاعدة في ضرورة الفهم عن القرآن والكون معاً، ثم تترك لهم الخيار في كيفية هذا الفهم ودرجته وقوته بحسب ظروفهم الزمانية والمكانية.

* * *